الرومانتيسم

فى الأدب الفرنسى

(٢)

الأدب بعد الثورة الفرنسية

مضى عهدُ القلق والاضطراب وجاءت الثورة الفرنسية فقلبت الحياة الاجتماعية والنُّظُمَ السياسية رأساً على عقب . وكان من آثارها فى الأدب والفنّ تعجيل الحركة التجديدية التى تهيأت لها النفوس وتشوفت لها الأنظار ، واتصلت بمشاعر الشعب تلك اليقظة الرُّوحية والأشواقُ الجديدة التى شاعت فى أواخر القرن الثامن عشر وبدء القرن التالى ، وأول ثمرة جناها الأدب من ذلك التغيير إقفال الأندية أبوابها وسقوطُ نفوذها بتنفس الأدب الصعداء . وتخلص من هاتيك الصالونات الارستوقراطية التى كانت تتحكم فيه وتجعله تحت كلكلها وتخضعه لأوضاعها وتوجهه حسب أمياله وأذواقها . وكان القضاء على تلك الأندية المتحذلقة قضاء على مقاييس الأدب فيها ، وما عساها تكون مقاييس المجتمعات الثرثارة سوى اعتبار الأدب آلة من آلات التسلية وتزجية أوقات الفراغ ومتمماً من متممات الاناقة والظرف .

ولم يكد يمضى من القرن التاسع عشر ربعه حتى اختمرت فكرة التجديد الأدبى ونضجت فى أفكار الجيل الناشىء : جيل رُنَى وفرتر ومانفريد [1] .

وفى تاريخ الأدب الفرنسى أنّ أول عصبة التأمت للتفكير فى العمل المنظم وتوحيد الجهود وإبراز الأدب الرومانتيكى إلى حيز الوجود هى عصبة شارل نوديه

---

(١) رنى بطل رواية شاتوبريان الموسومة باسمه ، وفرتر بطل رواية جيتى الشهيرة ، ومانفريد بطل رواية اللورد بيرون ، وكل هاته الروايات أثّرت تأثيراً عميقاً فى عقول الجيل الناشىء .

محمد الحليوى

فى ناديه كانت الأحاديث تدور على ضرورة تحرير الأدب وتحتم التجديد ، وهناك كانت تحطم القواعد العتيقة وتبنى على أنقاضها قواعد الأدب الجديد .

وكان من روّاد هذا النادى والآفه أدباء لم يشتهروا أو لم تنضج قرائحهم وتُنبق من الآثار مايتكفل بتخليد أسمائهم ، وأدباء آخرون صاروا فيما بعد عمدة ذلك العصر وأعلامه السامقة .

على أنّ الحركة الأدبية التى ترمى إلى التحرر والتجديد لم يتوقف ظهورها على وجود هاته الاندية الحرة إذ قبل أن يتأسس نادى شارل نودييه بأربعة سنوات ظهر ديوان «التأملات» للشاعر لامرتين فحيّا النقادُ فيه فاتحة العصر الجديد واعتبروه مكوّناً للناحية الغزلية فى الأدب الرومانتيكى، وهاك ما قالت إحدى مجلات ذلك العصر المؤسسة لخدمة المذهب الجديد والدعوة اليه : « إن فتح العبقرية الرومانتيكية أصبح أمراً مقضياً فى الأدب الحاضر وفى ذلك الخير كله ، وإن لمن الواجب أن يتبع الأدب هاته الثورة التى وقعت فى النواحى الاخلاقية والاجتماعية ، وربما كان هذا الفتح ضرورياً لأنه يخلصنا من جفاء الشعر الفلسفى وبرودة شعر مخادع

ويريحنا من ذلك التفخيم الممل والجعجعة الفارغة فى الشعر الوصفى . نعم ! لقد أزفت ساعة الخلاص . إن روح الانسان وقلبه لفى احتياج دوماً إلى الإحساسات الجديدة وليس غير العبقرية الرومانتيكية من يعطيها ذلك بملء الراحتين » (١)

وفى تلك الأحايين نشر الفريد دى فينى أيضاً شعره فحبّا فيه النقد ناحية الشعر الفلسفى الرمزى ، وأخيراً نشر هيجو ديوانه Les Orles فكان له صدى بعيد وان لم يتخلص فيه بعد من الأسلوب المدرسى .

فمن أى جهة نلتفت نرى الملك حاضراً والرقاب مشرئبة إلى مجىء الملك الذى يأخذ الصولجان ، أو نزول القائد الذى يتسلم الراية .

* * *

الرومانتيسم كلمة وجدت قبل فكتور هيجو فقد رأينا مدام دى ستايل تتكلم عنها وتشرح ما يفهم منها عند الألمانيين ، ومن هنالك نشأت بين الأدباء ، وكثر الاخذ والرد فيها ، وطال القيل والقال حولها .

وكان فكتور هيجو فى ذلك الوقت شهيراً بين الأدباء بديوان قصائده ولكنه كان هو الآخر مندفعاً فى وسط المعمعة الأدبية مضطراً إلى الانحياز إلى أحد الفريقين اللذين يدعيانه ، ولم تكن له إذ ذاك آراء بارزة فى الرومانتيسم (حوالى ١٨٢٤) فنحن نراه فى هاته الفترة متلمذاً إلى شاتوبريان ولامُنّيه مؤمناً بالملوكية والكنيسة معتمداً وحى قصائده من النصرانية ، ثم نراه بعيد ذلك يترك شعر أندرى شنيه ويشتغل بشعراء الليادة وأخيراً نراه يطلق تلك الحياة التى رضيت بالعرش مبدأ سياسياً وبالكنيسة مصدراً روحياً ويزهد فى أساتذته الذين كان يعجب بهم ويحذو حذوهم فى آثاره الأولى ، وما هو إلا أن تم هذا التطور السياسى والأدبى حتى نظر حواليه وفكر وتدبر وأخرج ما بين عشية وضحاها هاته المقدمة الخالدة مقدمة كرمويل فكان ظهورها خاتمة عصر التدرب والتجربة ، كما كان الحد الفاصل بين عصرين أحدهما ابتدأ والآخر انتهى .

* * *

مقدمة كرمويل ! يعجبك من هاته المقدمة سياقها المطرد وروحها القوى العاتى

---

(١) مجلة La Muse Française

وتصرف الكاتب فيها تصرف القائد الفاتح الذى يرغمك على الخضوع ويضطرك للاتّباع وقد ظهرت فيها ميزات الزعامة بكل قوة ووضوح ، فمن ثقة فى النفس إلى جرأة فى المهاجمة إلى حرارة فى المعتقد .

فكيف استطاع هيجو أن يقنع المكابر ويجلب النافر ويهدى المتردد الحائر ؟ وما هى النظريات التى بنى عليها مذهبه ؟

هانه النظريات نحاول تلخيصها فيما يلى :

« إن الفنّ ليس شيئاً ثابتاً جامداً لا يتبدل ولا يتغير ، فنحن نرى الحياة تتبدل وتتحول والأدب من الحياة بل هو الحياة فى الصميم ؛ فالواجب أن يخضع هو الآخر لقانونها وتسرى عليه سنّة التطور التى تسرى على الاحياء .

والشعوب تتطور أيضاً وفى كل دور من أدوارها يولد نوع خاص من الادب يوافق حالتها ويساير تطورها ، وفى العصور العتيقه كانت الشعوب وهى فى عهد طفولتها تتغنى بكل ما تراه جليلا من مشاهد الكون وذلك هو العصر الغنائى ومنه خرج سفر التكوين ؛ وفى العصور القديمة كانت الشعوب قد تشعبت فيها الحياة الاجتماعية فوقعت الحروب وظهرت بطولة الأبطال وطوّحت بهم الحوادث الى بعيد الاسفار فقصّ الشعراء مطوّحات أولئك الأبطال ، وذلك هو عصر الملاحم ومنه خرجت الالياذة . ثم ان فى العصور الحديثة قام الاجتماع على أسس متينة فانطلقت الاميال من عقالها وتصادمت الأهواء وتداخلت الرغبات فكان عصر الدراما ؛ ومنه خرجت روايات شكسبير .

ثم إن الحياة ليست وحدة قائمة الذات لا تقبل التجزئة ، ولا هى بسيطة ، بل الحياة مركّبة ذات مظاهر متباينة وصور متغايرة فانا نجد فيها الشيء ونقيضه والضد وضده فهناك مثلاً الكون والانسان والجسم والروح والمادة والعقل والحق والباطل والخير والشر والجميل والقبيح ، كل ذلك موجود فى الحياة ممتزج فى الكون فلماذا لا يكون ذلك فى الادب أيضاً ؟ على أن شكسبير وهو سماء الشعر فى العصور الحديثة قد فهم هذه الثّنوية فى الحياة فمزج فى نفس واحدة بين الجليل والمضحك والهول والهزل .

وأخيراً فالفن حر ولا يعقل أن يتقيد بقاعدة أو يخضع لقانون . فالعفاء على قاعدة الوحدات الثلاث والعفاء على قانون الذوق والعفاء ثم العفاء على المثل التقليدية والانماط المحتذاة والقوالب المصوغة ، ففى التقليد موت العبقرية ـ والعبقرية هى التى تخلق

وتبدع لا التى تقلد وتتبع ، وكل ما فى الطبيعة يجب أن يكون مادة للفن لان الطبيعة والفن شىء واحد ، والفنان الحق هو الذى ينقل الطبيعة لا كما هى فى الواقع ولكن كما أحس بها ونظر اليها بعينه ثم يؤدى ما أحس ورأى باسم الفن وربما صوّر الفنان القبيحَ جميلا وأسبغ على الدميم حلة الفن فاذا هو يروق الانظار ويستوقف الابصار، وعلى هذا يكون الفن هو الطبيعة التى يفيض عليها الفنان من فيض عبقريته ومشاعر قلبه ما يصيرها مادة للشعر والفن »

فالقارىء يرى من خلال هاته الخلاصة الوجيزة كيف يحل الشاعر نظرية التطور فى الادب محل نظرية الوقوف التى سنها القدماء وعكفوا عليها وانتهوا عندها، ويرى كذلك أهمية العنصر الجديد الذى أدخله هيجو فى تأليف الدرامة ونعنى به ادخال المضحك والقبيح فى الأدب وجعله مادة من مواد الفن ، ثم يرى أخيراً كيف قيد الشاعر الحرية فى الفن بقيد النظر الى الطبيعة بعين الفنان ولو نادى بحرية الفن المطلقة لكان الباب مفتوحاً الى الطبيعيين الذين يريدون من الفنان أن يقف أمام الطبيعة وقفة الآلة الفتغرافية وينقل مايراه دون أن يضيف اليه عاطفة من عواطفه أو صورة من صور احساسه .

وهكذا رمى هيجو هاته الصاعقة على رؤوس أمساخ القديم وكانت معارك هائلة ومناظرات حادة ومجادلات عنيفة ، وكم تلهى بقايا المدرسة العتيقة بنظرية المضحك والدميم وتنادروا بها وصوروها تصويراً هزلياً ولكن المعركة الفاصلة التى اندحر فيها أنصار القديم كانت يوم تمثيل رواية هرنانى وفيها نودى بهيجو زعيماً للمذهب الرومانتيكى فتقدم وأخذ الصولجان وحمل الراية للميدان .

* * *

والآن ما هو الرمانتيسم ؟ أقوال متباينة وحدود كثيرة :

قيل : هو أثر الثورة الفرنسية التى غيرت شعور الناس وطرق تفكيرهم .

وقيل : هو غلبة الخيال والعاطفة على العقل .

وقيل : هو الكلف بالطبيعة والشعور القوى بجمالها ومواقع فتنتها .

وقيل : هو استعداد الروح للكآبة والتألم .

وقيل : هو حب العزلة والانفراد.

وقيل غير ذلك كثير ، وأشمل تعريف رأيناه هو الذى ذكره Seillires فى كتابه عن أدب القرن التاسع عشر حيث قال : الرومانتيسم هو غلبة غير المعقول على المعقول ، وإرادة القوة ، والاحساس المُلِحّ بالذاتية ، وثورة العاطفة ضد الذكاء ، والغريزة ضد العقل ، وهو التصوف فى الحب ؛ وأن تكون صوفى الطبيعة .

وقد يتساءل القارىء عن علة هذا الاختلاف وكثرة هاته الحدود التى ربما غضت من قيمة هذا المذهب وجعلته زئبقياً لا يكاد يمسك ، وعلة ذلك فيما نرى راجعة الى نفس الرومانتيسم ، فاذا كان هو ثورة على القواعد وتخلصاً من القيود فكيف يعقل أن تكون له قواعد وقيود ؟ واذا كان دعوة إلى الحرية وهرباً من العبودية فبأى حق يكون مقياساً يقاس عليه ، ونمطاً يدخل تحت التعاريف المحدودة ؟ وإذا كان فى جملته وتفصيله انتصاراً للفردية فكيف يحصر أمزجة « الافراد » ويصبها فى بوتقة واحدة ؟

ومهما يكن من الأمر فاننا إذا قرأنا منتجات العصر الرومانتيكى أعجبنا منه حديث الشاعر عن نفسه وانفعالاتها ، ولئن اهتممنا بهذا الحديث ورغبنا فى قراءته وتأثرنا وبكينا أو سررنا فما ذاك إلا لأننا أناسىّ مثله نعطف كما يعطف ، ونحسّ كما يحسّ ، ونشعر كما يشعر ، ونحمل قلباً مليئاً بالمعانى الانسانية والعواطف المتباينة ، ولا يمتاز عنا إلاّ بحدة إحساسه ومرهف شعوره ، وعمق نظرته ، وقدرته على أداء تأثراته وانفعالاته .

وقديماً أغرم العرب بالسؤال عن أشعر الناس .

وكان المسؤول ينشد البيت الفرد من شعر الشاعر ثم يقول هو أشعر الناس حتى كان كل الناس أشعر الناس .

أما نحن فنقول اليوم إن أشعر الناس هو أعمهم إنسانية وأشملهم بشرية ، وهو الذى يكون مرآة صادقة يتراءى فيها الكون وما يلقيه اليها من الظلمات والأشعة ووتراً رقيقاً تغنى عليه الانسانية أشواقها وآمالها وتلحن عليه أحزانها وآلامها ،وهو الذى ينظر إلى الكون ويضع مشكلاته على بساط البحث ويقف أمام الطبيعة ويتساءل عن العلة والنهاية ويتلمس فى ظلمات الشك والحيرة ما هنالك وراء المادة ، وهو الذى يدخل إلى نفسه ليتعرف هاته الذات التى هى أنا ، ويتشوف إلى الوقوف عن مبدئها وغايتها من الوجود ومعادها . ذلك هو أشعر الناس، وتلك هى مملكته

ومجال شعره، وهذا ما نفتظر منه إن يعرضه لنا فى آثاره ويتلمس له الحلول والشروح فى نبضات قلبه ووحى عبقريته .

ومن هذا نعرف ان الرومانتيسم لا يختص بالادب الفرنسى وحده فلكل أمة من الامم أدبها الرومانتيكى، وكل مدنية قامت فى الدنيا كان لها عصرها الرومانتيكى ، فهو العصر الذى تتصل فيه الآداب بالروح وتمتزج بالمشاعر وتجيب دواعى القلب المجهولة ، هو العصر الذى يتخطى أهله تلك الحيوات الحقيرة والمآرب العجلى ويكفّون عن اعتباره ملهاة لدفع السآمة ومشغلة لأوقات الفراغ ، هو العصر الذى يحل فيه فى كل عقل تساؤل وفى كل قلب حيرة فتطرق أبواب الغيب ويوقف أمام الطبيعة وتتعرف أسرار الدين، وهو كذلك عصر المشادة والجهاد الذى لاتنهض الآداب إلاّ فى ظله . وهذا أدب الألمان الرومانتيكى كان أزهر عصوره عصر الاضطرابات والفوضى التى أحدثها تفكك الامبراطورية إلى دول صغيرة والحلال وحدتها ، وقل مثل ذلك فى الأدب الانجليزى والايطالى (١)

وقد كاد أن يكون للأدب العربى عصر رومانتيكى مع الشعراء العذريين ، وقد كان ذلك العصر عصر مشادة على أثر انتقال السلطان من جزيرة العرب إلى دمشق وجهاد الأحزاب السياسية العنيف وتغلب اليأس والقلق على القلوب ، فكان ذلك من أسباب ظهور الشعر الغزلى كما فصله الدكتور طه حسين بقوة فى كتابه « حديث الاربعاء » ، وقد قلت كاد لأنه كان رومانتيكياً فى روحه ومنحاه ولم يكن فى أساليبه وقوالبه التى بقيت مدرسية تجرى على سنن الشعر العربى الجزل .

واليوم كل ما فى الشرق يبشرنا بأننا على أبواب الأدب الكبير ، الأدب الرومانتيكى إن لم نكن مشينا شوطاً فى هذا السبيل ، فهناك علامات كثيرة وبذور طيبة ستؤتى أكلها بعد حين . ومن هذه البذور الصالحة مجلة (أبولو) التى نعلّق عليها كبير الآمال فى توجيه الأدب العربى الى هاته الناحية ؟

تونس : محمد الخليوى

(١) انظر فى هذا المعنى (حصاد الهشيم) للمازنى : الادب ينهض فى عصور المشادة (ص٥٩)